((سُكُونٌ بَهِيجٌ))

القلوبُ هي رياضُ المحبّين التي فيها يُحبَرون، فيُسَرّون ويبتهجون بسكونِ كلِّ روحٍ إلى خِلِّهِ وحِبِّهِ في هذه البساتينِ المُخضرّةِ الغنّاءِ بمعاني الحبِّ وميلِ بلابلِها للوُدِّ والائتلاف، حيثُ تجري أنهارُ المودّةِ خلالَ أزهى بقاعِها، فتُرمى المنغصاتُ من جدالٍ ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ كالزبدِ الذي يربو جُفاءً، ويمكثُ اللينُ وأجملُ المقالِ والأفعالِ كرسوخِ الجبالِ الشامخات.

وترتعُ البلابلُ بوجوهٍ ناعمةٍ محلّقةٍ بين الأكوابِ الموضوعةِ والزّرابيِّ المبثوثةِ في أروقتِها، تعلوها تلك النمارقُ المصفوفةُ، مقيمين على سررِهم الموضونةِ بالياقوتِ متقابلين بصفاءِ سريرتِهم وحُسنِ أدبِهم في ذلك المسكنِ الأمين.

فيا لَبَهاءِ طلّةِ مَن جعلَ فؤادَهُ سكنًا لقلوبِ غيرِه من زوجٍ وصديقٍ، فيمشِجُ بعضُها بعضًا حتى تكونَ قالبًا واحدًا ينضحُ منه قويمُ الخصالِ ويتضوعُ من جوفهِ مسكُ الوُدِّ والإخاءِ، فنِعمّا هي الأرواحُ ذو السكونِ البهيج!

((خُلَّةُ الْحِبِّ))

الحب علاقة مقدسة مباركة بين طرفين يتقاطر من محيّاهم أسمى خصال الأخلاق محلّاة بأرقّ المشاعر وأعذب المقال وأنبل الفعال تكون تارة ميثاقا غليظا بين زوجين أو إخاء بين خلّين، ومن جمع بين يديه كلا الحسنيين فقد حاز دنيا خالصة البهاء، فهذا رجل زكي طاهر الروح ذو قلب سليم مُشِجَت جلّ أفئدة غيره به وتعانقت روحهم به من زوج وخلّ، وفاز من حظي رفقته سواء في دنيا فانية أو في الجنان الخالدة، يسأل من صحبه: من أحب الناس إليك؟ فيجيب أن عائشة، لا يخجل من إظهار حبه لها ويرفع من قدرها في حضرة صحبه، كما اعتاد أيضا أن يدللها بعائش، ومن أرق ما روته عائشة في حالها معه: كنت أشرب من القدح وأنا حائض فأناوله إياه فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب منه وأتعرق العرق -أي العظم عليه بقية من لحم- ثم أناوله فيضع فاه على موضع فيّ كذلك، كما أخبرت عنهن أنه كان يقبّلهن وهو صائم، فعُلم حبه لها،حتى إذا كان عند أحد الصحب هدية يريد إهداءها إليه أخرها ذلك الصاحب حتى إذا أتى يوم نوبتها بعث بالهدية إلى الحبيبة ابنة الحبيب الصدّيق، مما أثار غيرة بقية نسائه فدَعَوا فاطمة ابنته لتقول له: إن نساءك ينشدنك الله العدل في ابنة أبي قحافة،فردها قائلا: يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟

قالت: بلى يا أبتِ، فقال لها: إذاً فأحبي هذه، ومثل ذلك الأمر حدث مع زوجته أم سلمة حتى قال لها: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة!

تقول: كنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد بيني وبينه فيبادرني حتى أقول دع لي دع لي -يلاطفها بذلك وهما جنبان- فتختلف أيدينا في الإناء! كما كان يضع رأسه في حجري متكئا يتلو القرآن،فلم يمنعه كونها حائض آنذاك قربها وإبداء استئناسه بها، وها هو يسترها بردائه حتى تنظر الحبش يلعبون بحرابهم في المسجد فما زالت تنظر حتى كانت هي تنصرف أو تمل، فقدر قدرها كطفلة حديثة السن تسمع اللهو كما كانت تلعب بالبنات-وهن اللعب- وكان لها صواحب يلعبن معها فإذا دخل ينقمعن منه يتغيبن منه وراء ستار فيرفق بها و بهن فيسرّبهن إليها فيلعبن معها بهن كأن لم يحدث شيء، وهي التي قال فيها: إني ليهون علي الموت أن أريتك زوجتي في الجنة فها هو بين سحرها ونحرها بين حاقنتها وذاقنتها - ما بين الحنك والصدر - في يومها إذ دخل عبدالرحمن أخوها عليهما ومعه سواك رطب، فأبدّ زوجها بصره تجاهه فظنّت أن له إلى السواك حاجة فأخذته فمضغته وقضمته وطيبته حتى فاضت نفسه بعد استنانه به -كأحسن ما رأته مستنا -بعد دعائه مرارا: بل الرفيق الأعلى من الجنة! قالت: فالحمدلله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، فما أرقّ هذه الفعال والمعايشة!

يقول إني قد رزقت حبها -أي خديجة-،وكان يكثر ذكرها ويثني عليها بأحسن الثناء، مما أثار غيرة عائشة بقولها له: قد أبدلك الله خيرا منها -تقصد نفسها- فردها قائلا: ما أبدلني الله خيرا منها بل إنها قد صدّقتني إذ كذّبني الناس وآنستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء، "فإهراقت محابر الكاتبين وابتلّت لحى المخبتين و التجّت القراطيس عند تلقينها وفاة زوجه خديجة و عمه في نفس العام، حتّى رقّت الصحاف وسكنت الدفاف،وتزملّ ذِكر هذا العام أبدًا بعام الحزن سلوانا لفؤاد الخليل العليل"[1]، فكان حافظا لودها وراع لحرمة الصاحب والمعاشر حيا وميتا، فهذه جثامة المزنية - عجوز- تأتيه فيقول لها: بل أنت حسانة المزنية، ويسألها عن حالها، فلما خرجت سألته عائشة:تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال كلمة طرزت بالذهب والياقوت: إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان! بل وأكثر من ذلك أنه كان إذا أُتِيَ بالشيء يقول: اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت تحب خديجة، ورغم كل مسؤولياته وشدة انشغاله ومرور زمن من الدهر بعد موت خديجة عرف قلادتها في ذلك الموقف الذي حكته عائشة لما بعث أهل مكة في فداء أُسَرائهم بعد بدر حتى بعثت ابنته زينب في فداء زوجها قبل الإسلام أبي العاص - الذي لم يكن قد أسلم بعد- بمال وفيه قلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص.

فلما رأى القلادة رقّ لها رقة شديدة متذكرا سابق عهده معها كما لان لحال ابنته مستشعرا انفطار فؤادها ورقّته على أبي العاص وفداءها

[1] تعبير نُسج من وحي القلم لا تسطيرا لمُعجزة ربانية

له بأعز ما تملك. حتى قال مستأذنا صحبه: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها -يقصد قلادة خديجة-، فأجابوه لذلك،و هذا حدث آخر زينب تجهر بصوتها في المسجد وقت صلاة الصبح تُعلِمهم أنها قد أجارت أبا العاص-وكان عائدا من تجارة في الشام فأصابوا ما معه ولكن أعجزهم هاربا فاستطاع أن يستجير بها - ولم يكن قد أسلم حينها كذلك،ولم تكن قد عقدت على أحد بعده لعله يهتدي لطريق الرشاد فتكون له ويكون لها ! فما كان للأب ومن معه إلا أن أجاروا من أجارت،، فإن ذمة المسلمين واحدة في إعطاء الأمن يسعى بها أدناهم كما أشرافهم ولا يحل لأحد أن يخفر مسلما فينقض عهده ويتعرّض للذي أمِن إلا وتحل عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفا ولا عدلا فرضا ولا نافلة وكل ذلك بشرطه عند أهل العلم والإيمان، فخرجوا له عزلا بدون سلاح كرامة لها فردوا عليه ما له بأسره لا يفقد منه شيء، كما طلب الأب هو من ابنته أن تُكرِم مثوى الرجل وأن لا يخلص إليها حتى يسلم ففعلت ذلك، فعُرف عنه في هذه الحادثة تقديره واحترامه المشاعر النبيلة لما رآه في ابنته من الوفاء والحب الجريء كما أعلى من شأن المرأة وأكرمها.